زمن الخضر!

قصة : د. سيد شعبان

لم تنته حكايات ذلك المكان؛ يختفي وراء التلة؛ تغيب عنه الشمس؛ يبدو خارج دائرة الزمان؛ تتجمع تلك المفردات يقتاتها كما أرغفة الخبز؛ نهاره ينسلخ من ليله؛ يلوك ما انطوى عليه؛ غير أنه هذه المرة من البئر الذي يختزن فيه أسراره بدت الحكاية أشبه بالخيال؛ يقول أبو قمر: اقترب زمن سيدنا الخضر؛ في يديه مسبحة طويلة؛ تضيء في العتمة؛ تسقط المطر وتتبعه القطط البيضاء؛ يتساءلون: هل سنجد في الغيطان سنابل القمح تحمل كل واحدة مائة حبة؟

يخرجون المواعين آملين أن تبيض فيها العصافير!

غير أنها تسافر بعيدا؛ تطاردها الغربان؛ ربما تضل الطريق فتموت عطشا في صحراء التيه؛ أو غرقا فتكون طعاما للحيتان!

لا تكاد تعرف من يسكنون الكفر المتواري حيث البعوض؛ كاتب المواليد في دفتر الصحة العتيق أعمش، ربما أسقط واحدا سهوا؛ كثيرون أدرجهم في الخانة الصفراء؛ لذلك يظل الكفر كما هو؛ بناسه وحيوانه؛ ساكن يعيش في رتابة؛ ليل يتبعه نهار؛ بيوت من طين؛ كيمان السباخ تسكنها الحيات وأبناء عرس!

ناس كفرنا بطونهم ضامرة؛ لم تعد تأتي النسوة بصغار بل أشباه السحالي؛ ضرب الجفاف الأرض؛ شاخت أشجار الكافور عند ضفة النيل؛ حتى الأرحام لملوحتها تموت فيها مياه الرجال!

يتفل بهلول الجزار؛ تدوي الريح في دكانته؛ يعدهم الشيخ أبو قمر بالعسل والسمن؛ يمصمص سموعة النجار شفتيه؛ سرح السوس في البيوت!

يكاد مولانا تطول لحيته ركبتيه؛ تسبقه بطنه أشبه بكرة تتدحرج؛ يعدهم في الآخرة جنات لهم فيها النعيم؛ يحلمون بالحوريات ينرن في ليالي طوبة الطويل!

يجري الصغار أشبه بالسحالي وراء الكلاب؛ خطفت أرغفة الخبز!

في كفر المنسي أبو قتب حكاية عن كنز عجيب!

يبدو النقش على أبواب الكفر كائنات غريبة؛ يقطر الكف ذو الخمسة أصابع دما؛ حتى إذا ما جاءت ليالي الشتاء تحركت كل تلك الشخوص؛ يقال تتلبسها الجن!

يمرون بالجامع مسرعين؛ لم تنفعهم الصلوات؛ هكذا يقولون!

يأتيهم رجل يركب حمارا؛ يقطر وجهه ماء كأنه عطر؛ يمتلىء نضارة؛ تلتف حول رأسه عمامة خضراء؛ ينظرونه في دهشة؛ يتمسحون به؛ يخرج لمن يقابله رغيفا محشوا باللحم؛ لا ينفد ما بجواله؛ يتبعونه كما لو كان المسيح يخطو!

يرفع يديه إلى السماء؛ تأتي سحابة مكتنزة بالماء؛ ترتوي الأرض!

يتمرغون في الشوارع!

حين مات أبو قمر مشوا في جنازته يبكون؛ من بعده يفسر لهم الأحلام؟

هل سيأتي الزمن يخرج من النهر سمك يشبع بطونهم؟

صاح أحد الدراويش:

مولانا الخضر سيفرد جناحيه على كفر المنسي أبو قتب؛ ستأتيهم بركته حتى لو لم يغتسلوا في ماء النهر!

نسوة الكفر أشبه بعيدان الذرة تتخذها الغربان أوكارا!

عند النخلة العجوز ابتنوا له مقاما؛ في كل مرة يرفعون الجدار؛ يتباهون به؛ غير أن الكفور حولهم تزدهي بالسنابل تتراقص؛ وحده كفر المنسي أبو قتب يعلوه مقام الشيخ أبو قمر!